الفصل الأول

إسلامية المعرفة أو المعرفة الاسلامية

ما هو أول علم تلقاه آدم عن ربه ؟ رفع به مكانته ، ورجح كفته ، وأقنع الملائكة بأنه أهل للحياة والخلافة فى الأرض والسيادة على أرجائها وأحيائها ..

لقد قال سبحانه وتعالى : « وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ .. »[1] .

ما هذه الأسماء ؟ ومامسمياتها ؟ لا أريد أن أذهب بعيدا ، سأبقى مع السياق القرآنى وحده ، إن الله يقول للبشر قبل ذلك : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ... »[2] وهذه عبارة عامة مجملة ، سبقتها فى النزول آيات فصّلت الموضوع تفصيلا أوضح « وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ .. »[3] .

ظاهر أن العلم الذى اختص به آدم يتصل بالأرض والحياة على ظهرها ، واستثارتها واتصال عمرانها ، واستكشاف قواها وأسرارها ، ولن تكون الأرض وحدها مهاد الحياة البشرية فالأرض إحدى بنات الشمس ، والمعيشة فوق ترابها

---

(١) سورة البقرة : ٣١ ـ ٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٩ .

(٣) سورة الأعراف : ١٠ ـ ١١ .

مرتبطة بكواكب شتى فى السماء ، فلابد أن تتسع المعرفة الآدمية لتشتمل على علوم الكون والحياة ...

ولانزعم أن آدم عرف الكيمياء والفيزياء والفلك ! لكننا نزعم أنه عرف الأبجديات التى تتكون منها هذه العلوم مع إدمان البحث والتجربة ، وأوتى عقلا جوّابا فى الآفاق يقدر به على تسخير عناصر الكون لنفسه ، كما يقدر به على معرفة آيات الله فى الملكوت الكبير ، ودلالة هذا العالم الضخم على عظمة بانيه وبارئه ..

وهل خلق الله الكون إلا لهذه الغاية ؟ إنه يقول فى كتابه : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا »[1] . إن الله خلق هذا العالم لنعرف نحن ـ من هذا الخلق ـ قدرته وإحاطته ، فنقدره حق قدره ، ثم نسبح بحمده ونهتف بمجده !

والرحلة من الجهل إلى المعرفة بعيدة الشقة ، وقد تقطعها أجيال بعد أجيال ، ليكن ، فهذه رسالة آدم وبنيه على ظهر الأرض .. بها تميّز على الملائكة ، وبها استحق الخلافة ..

وعجبى لأمم تحيا على الثرى لاتدرى مافيه ولا ماتحته لأنها فى طفولة عقلية تحتاج معها إلى المرضع والكافل ..

أمم لم تمكّن فى الأرض مع أنها أوتيت أسباب التمكين ! ولم تجعل لنفسها معايش إلا ماتلتقطه الثعالب من فضلات الأسود !

لقد عُلِّم أبوهم آدم الأسماء كلها ، فجهلوا هم هذه الأسماء كلاًّ أو بعضا ، وإنى أرمق المسلمين فى هذا العصر فأذكر ذا القرنين وقد مرَّ على قوم يغار عليهم ولايغيرون ، وينال منهم ولاينالون « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ..»[2] .

---

(١) سورة الطلاق : ١٢ .

(٢) سورة الكهف : ٩٣ .

ماذا يطلب هؤلاء العجزة ؟ يطلبون من يحميهم من عدوهم ، ويبنى لهم حصونا يأمنون خلفها على أنفسهم ! لأنهم لايستطيعون تشييد هذه الحصون !

إن علمهم بالحياة ضحل ، وحظهم من التمكين قليل . إن صلتهم العلمية بآدم واهية ، وطالما شكوت من أن الجانب الإنسانى العام مثلوم فى الحياة الإسلامية المعاصرة !

وقد يظهر هذا الضعف المخزى فى بعض الأجيال التى تعمر الأرض ، فيكون من عمل الأنبياء أن يعرفوا الناس كيف يحمون أنفسهم وكيف يحمون عقائدهم وشعائرهم ، يقول الله فى نبيه داود : « وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ »(١) .

إن معرفة الحياة صنعة إنسانية عامة ، والتمكين فى الأرض حق لبنى آدم كلهم ، أما الجهل والعجز فعلل تعترى الآدمية تفقد بها شخصيتها وتقصر بها عن رسالتها ..

وما يكون الإنسان إنسانا إذا توقف عقله عن الفكر ، وأشبهت حواسه وجوارحه حواس الدواب وجوارحها فى أكل ما تيسَّر ، والعيش فى نطاق غرائز بدائية تنطلق بها الكلاب والذئاب ..

ونعود إلى أبينا آدم ، وكم أرقُّ لحاله وهو يهبط من جنته ليكدح كى يبقى ! لقد كان فى رزق دارٌّ وعيش قارٌّ ، وهاهو ذا يسعى جاهدا حتى لايجوع ويعرى !

هذه عقبى ضعف الإرادة وغلبة النسيان ، والخديعة بوساوس الشيطان .. إنه هبط على أية حال وهو مزوَّد بمعرفة نظرية عن حياته الجديدة ، وإن كان البون بعيدا بين العلم النظرى والمعاناة الواقعية لابد أن يعرق ويقلق ، وقبل ذلك ومعه لابد أن يذكر ربه ويحترم أمره مهما كانت المغريات والمثبطات .

وقد قيل له وللشيطان الذى أغواه « قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ »(٢) .

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٠ .

(٢) سورة طه : ١٢٣ ـ ١٢٤ .

إن أبانا آدم ـ فى ماضيه الطيب ـ كان يتلقى العلم عن ربه ، ويستمع إلى أمره ونهيه ، فإيمانه به إيمان شهود ، ثم كان الخطأ « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ »[1] ثم شرع يستقبل حياته على ظهر الأرض ، وهو موقن بأن من الله المبتدى وإليه المنتهى ، وأن عليه وعلى نَبِيِّه من بعده استصحاب هذه الحقائق ، فلا ينسى أحد من أين جاء وإلى أين يصير ..

أمداد هذا الذكر الواجب ، وينابيعه الدافقة ، تتفجر من فجاج الأرض ، وآفاق السماء على سواء .. إن هذا التراب الداكن عندما ينشق عن شماريخ البلح وعناقيد العنب إنما يتحدث عن ربه ..

والرياح التى تسوق السحب من شرق الدنيا إلى غربها فتهمى بالحياة والنماء إنما تحدث عن ربها ..

وهذا الإنسان الذى يولد من ماء مهين ، ويبدأ طفلا غامض المستقبل لاتدرى أيكون امرءا عبقريا أم جبارا شقيا ؟ إن هذا الإنسان ـ طوعا أو كرها ـ يتحدث عن ربه ، إنه ماخلق نفسه ولا خلقه أبواه ، إنه ما خلقه إلا الله ..

وإيمان الشهود عند آدم تحوّل فى أبنائه إلى إيمان تفكير إلى إيمان بالغيب ، بيد أن ضمانات هذا الإيمان من الكثرة والوفرة بحيث لا يبقى لتجاوزها عذر .. أساسها أن آدم الذى استوعب علم الحياة عندما عُلِّم الأسماء كلها ، عرف ربه ، وعرف ما يدل عليه فى جنبات العالم الكبير الذى هبط إليه .

كان مخلوقا يعرف خالقه ، وتابعا يعرف سيده ، ومارأً بتجربة شاقة ينبغى عليه وعلى أولاده أن ينجحوا فيها ..

مصدر العلم الإنسانى :

مصدر هذا العلم الذى علا به آدم على الملائكة ، الكون !

إن العلم بالكون هو صميم الإنسانية ، والجهل به لايعوض عنه شىء ! وقد أبان لنا القرآن الكريم ثلاثة أسباب لهذا العلم الكونى الواسع ..

---

(١) سورة طه : ١٢٢ .

الأول : دلالته على الله ، وقد شرحنا ذلك فى أماكن أخرى ، ونشير هنا إلى بعض أقسام القرآن التى ألمعت إلى عظمة الله المبثوثة فى مادة الكون ونظامه .

نحن نعيش فى كون متحرك ، القمر يجرى حول الأرض ، والأرض تجرى حول الشمس ، والشمس تجرى لمستقر لها ، تنطلق معها توابعها التى اكتشفت كلها ، والشمس وأسرتها ، واحدة من مجرات فوق الحصر تجرى فى فضاء لم تُكتشَف آماده .

ومع هذا الجري الدؤوب في كل اتجاه فهو كالقافية المحبوكة الوزن المضبوطة الأداء لايطرأ عليها خلل ولاتعتريها فوضى « وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ »(١) . نعم إن الحبكة الملحوظة فى نظام الأفلاك الدوّاره تثير الدهشة ! « فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »(٢) .

وقد ينظر المرء ببلاهة بُعيْد الفجر وانغلاقه إلى الظلام ترقّ كثافته وتخف حدته ، ويتلاشى أمام النهار المقبل من بعيد ، إنه لايدرى كيف تم هذا المخاض ؟ وكيف تمت فى الفضاء الرحب ولادة يوم جديد ؟

تدبّر هذا القسم « فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ »(٣) إن هذا المشهد يتنقل على خطوط الطول والعرض باستمرار ، لا يتخلف ولا ينقطع ، حتى يأذن الله للشمس أن تخلف موعدها وتطلع من مغربها ، ويؤذن بانقضاء هذه الدنيا وانتهاء أيام الاختبار الإنسانى فى المضحك المبكى ..

الثانى : ارتباط الحياة الإنسانية ضروراتها ومرفهاتها بهذا الكون ! « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »(٤) .

---

(١) سورة الذاريات: ٧ــ٨.

(٢) سورة الملك: ٣ــ٤.

(٣) سورة التكوير: ١٥ــ١٨.

(٤) سورة النازعات: ٣٠ــ٣٣.

إن أغذيتنا وأدويتنا وألبستنا من هذه الأرض ، والأرض كما علمت جزء محدود من عالم ممدود ، بل إن ثقبا فى بعض الأغلفة الجوية قد يتهدد أرضنا بالفناء ، كأن هذا الكون كله خلق من أجلنا « وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ »[1] ...

أليس يدعو للكآبة أن المسلمين المعاصرين آخر من يعلم هذه الحقيقة ؟

غيرهم نقّب فى البلاد فاستخرج الغالى والرخيص وارتفقه وباع مايفضل عنه ، ونحن نمشى فوق أراضٍ ملأى بالنفط والحديد والذهب ، لاندرى ماحوتْ ! حتى يجىء من يرى أن الأرض له ليثيرها فتعطى كنوزها ينفق منها كيف يشاء ، ثم يرمى لنا الفضلات فى كبر وتأفف !

أيرضى بذلك أولو الألباب ؟ إن فقه الكون والحياة فريضة أسبق من فرائض أخرى صنعها أصحاب الثقافات المغشوشة ، زعموها دينا وهى أبعد ماتكون عن الدين ..

الثالث : حماية الحقوق والحقائق ، فالويل لنا يوم يكون أهل البيت مسلحين بالحجارة واللصوص مسلحون بقذائف قريبة المدى أو بعيدة المدى ! ! سينهب الحق وتُطمَس الحقيقة ..

لقد وصف الله خواص الحديد ومنافعه المدنية والعسكرية فقال : « وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ »[2] فهل ينصر الله ورسله قوم لا علاقة لهم بحديد ولا خشب ؟!

فى هذا العصر اتسعت ساحات الحروب حتى شملت البر والبحر والجوّ ، ومن المستحيل أن ينجح فى هذه الميادين إلا ذوو الثقافات الغزيرة المستبحرة المستكشفة !

ولا أزال أنظر بضيق وأسف لقوم يروون حديث «نحن أمة أمية»[3] ليفهموا منه

---

(١) سورة النحل: ١٢ــ١٣ .

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الصوم.

أن الأمية صفة أمتنا إلى آخر الدهر.

فهم يرفضون الحساب الفلكيّ، وينكرون القواعد الرياضية التى قام عليها إرسال المركبات الفضائية وأمكن بها النزول إلى القمر..! ثم ينظرون إليك بتبجح قائلين: أتنكر السنة؟

إن هذا الوصف كان لواقع عربى متخلِّف نقضه القرآن الكريم من القواعد عندما قال: « هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(١).

هذا الحق لا يدركه إلا قوم يعلمون! وقد لاحظت أن الوصف بالعلم يجىء غالبا عند الكلام عن الكون وأسراره وقواه وحركاته.

تدبّر قوله تعالى: « فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(٢).

وفى إلماعة إلى عظمة العالم وضآلة البشر يقول: « لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »(٣).

وفى بناء التوحيد على الفكر الباحث والنظر السديد يقول: « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ »(٤).

ثم تجىء آيتان تكادان تحصران العلم المثمر المورث لليقين فى العلوم الكونية القارئة لآيات الله فى صفحات الأرض والسماء، وهى العلوم التى قلّتْ حظوظنا فيها وصفرت أيدينا منها، فأمسينا فى الميدان الدولى كما قال الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولايُستَأمرون وهم شهود!

---

(١) سورة يونس: ٥.
(٢) سورة الأنعام: ٩٦ــ٩٧.
(٣) سورة غافر: ٥٧.
(٤) سورة البقرة: ٢٢.

وأى قيمة لفارغ العقل واليد من علوم الكون والحياة ؟ أما الآيتان فقوله تعالى :
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »(١) .

ولا عجب فأصحاب العقل أو أولو الألباب كما عبّر القرآن الكريم هم مستخرجو الحق من ثنايا الكون الكبير « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ »(٢) .

ومع ذلك كله فكلمة « نحن أمة أمية » تسرى كالخمر فى أبدان السكارى ، مما جعل المسلمين يتسوّلون المعرفة من ألسنة أخرى ، وأمم أخرى لأن مصادرها فى العربية وبين العرب أدركها الجفاف ...

ولْنشرْ إلى فروق بين العلم الدينى والعلم المدنى ! الأول محدّد ، أساسه الاتباع ، والآخر مطلق أساسه الاختراع والابتداع ، فالصلاة مثلا والطهارة اللازمة لها لايتطلب تعليمها إلا ساعة من نهار ، وعلى المسلم بعد هذه المعرفة تكرار ما أمر به سائر عمره ليفيد من هذا التكرار أدب النفس وسكينة الروح ، وتماسك الجماعة وإقامة أمة متعارفة على منهاج وهدف ..

أما علوم الدنيا فهى متجددة ، وقد لاحظنا فى نصف القرن الأخير أن المعارف الإنسانية زادت بما يساوى أو يفوق ماحققته الإنسانية طوال القرون الماضية ، ودارسو العلوم الكونية ومتابعو التطور الحضارى يحسون هذه الحقيقة ..

ومن المؤسف أن المسلمين لم يسهموا فى هذه الوثبة الرحبة ، أعنى مسلمى القرون الأخيرة ، أما آباؤهم الكبار فأياديهم على العالم لاينكرها إلا متعصب جاحد ..

بم شغل المسلمون المتأخرون أنفسهم ؟ بالكلام فى بعض الجوانب الدينية ! فقد

---

(١) سورة فاطر : ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١ .

يستغرق شرح الصلاة شهرا ! وقد يطول الحديث فى الوضوء والغسل قريبا من هذه المدة ..

وبديهٌ أن أفرق بين التخصص العلمى وبين الأنصبة التى تعمّ الجماهير...

وأيًّا ما كان الأمر فإن المساحة الزمنية والعقلية التى لابد منها لعلوم الحياة ضاقت كل الضيق لحساب شئون أقرب إلى اللغو والثرثرة ، ومن ثم لحقت بالإسلام هزائم مادية وأدبية شائنة ..

إن المسلمين الأولين اخترعوا علوم المعانى والبيان والبديع ، والنحو والصرف لخدمة الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم ..

وخدمة هذا الكتاب تحتاج إلى جانب ذلك حاجة ماسة إلى علوم الأحياء والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض إلخ .

والجهالة بهذه العلوم خيانة مخزية للإسلام وكتابه الضخم .. وهى ـ مع كونها خيانة دينية ـ خيانة إنسانية عامة لرسالة أبينا آدم الذى ألهم الأسماء كلها ، وجعلت له الأرض ذلولا ، وساد فيها البر والبحر !

لماذا يغوص غيرنا فى الماء ، ويسبح فى الفضاء ونحن ننظر مشدوهين ؟ لماذا يملك الإلحاد الكهرباء والذرة ولانملك نحن إلا الهراوات ؟ نهدّد بها من يعترض أهواءنا .. ! !

من عجائب دنيا المسلمين

أليس عجيبا أن تكلَّف أمة ببناء إيمانها على دراسة الكون ، ومع ذلك تحيا محجوبة عن الكون ونواميسه وأسراره وقواه ؟

أهذه هى استجابتها لقول الله : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ .. »[1].

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١ .

لو كانت أمتنا حين تكاسلت واستنامت تعيش على ظهر الأرض وحدها لكان وزر تخلُّفها على رأسها ، تعانى منه فى شئونها قلَّت أو كثرت ! !

لكن أمتنا فى سباق مع أمم أخرى لاتنام ! أمم لا رسالة لها ، أو لها رسالة مادية محدودة قوامها الباطل والهوى .

ومع ذلك فإن المبطلين يسابقون الريح نشاطا وعزيمة ، ونحن ممثلى الحق جاثمون على الثرى ، ننظر ببرود أو بلاهة إلى الآخرين ، ولا نعى من رسالتنا شيئا ذا بال ..

الآدمية فى كتابنا علم عجزت عنه الملائكة ، وظفر به آدم وحده ، فاستحق الخلافة فى الأرض ! والآدمية فى حياتنا طعام وسفاد ، وتحاسد وتفاخر ، أى هى الحيوانية الهابطة !.

الآخرون سيَّروا الأقمار الصناعية ، وأرسلوا مركبات الفضاء تزودهم بمزيد من المعرفة ..

وفى الوغى لهم أظافر تخنق وتذبح وتصعق ، وتفعل المنكر بعدوِّها ..

أما نحن فقد نتودّد لهم مشترين من أسواقهم ، أو مُتزوِّدين من غنائمهم ، أو مستعيرين من أسلحتهم مانحتاج إلى تعلُّمه منهم ، قبل أن نحسن استخدامه ! !

أنا ما أشك فى أن هناك عطبا أوكسرا أو تلفا فى كياننا الفكرىّ والنفسىّ ، جعلنا فى هذا الوضع المهين ، وما نصحّ أبدا إلا بذهاب هذه العاهات ، وعندئذ نصنع كما يصنعون ..

وقد أنظر إلى أنظمة الحكم هناك ، فأجد القادة بلغوا فى ثقافتهم أعلى شأوٍ ، وفى تجربتهم أعظم خبرة ..

ومع اقتدارهم على الرأى السَّديد فهم يستشيرون أهل الحَلّ والعَقْد فى بلادهم ، ويستمعون بإخلاص إلى الرأى الآخر ، وإلى النصح المجرد ، وكأن على لسان كل منهم كلمة أبى بكر « وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، إن رأيتم خيرا فأعينونى ، وإن رأيتم شرا فقوِّمونى » .

أما نحن فقد وقعت أمورنا بين أيدى أقزام متعالمين متطاولين ، لاندرى من أين جاءوا ، ثم نسمع الواحد منهم يقول فى صَلَف وزَهْو : « مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ »(١)!!

قائد الحق تجرى على لسانه صيحة فرعون ـ قبَّحه الله ـ وقائد الباطل تجرى على لسانه كلمة الصديق رضى الله عنه !!

أيَّةُ موازنة تلك ، وما يكون المصير مع هذا البلاء ، فى الأحوال السياسية والعمرانية التى تسُود أرض الإسلام ..؟ وشىء آخر ما نستحى من ذكره بعدما لفحنا دخانه وشروره .

فقد كان لتعمق الأوربيين فى العلوم الكونية أثره فى انفتاح أبواب الغنى عليهم ..

إن القوى والأسرار التى اكتشفوها كانت مفاتيح لخزائن السموات والأرض ، فلا غرابة فى ارتفاع مستوى معيشتهم ، ولاغرابة فى اتساع دائرة الرَّفاه والتنعُّم لديهم !

إنهم استثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم ، فخدمهم الرطب واليابس ، والسائل والجامد ، والحديد والذهب ، والتراب والهواء ، وتوشك أن تأخذ الأرض زخرفها ، وتزدان وتتحوّل إلى خادم طيِّع لأطماع الإنسان ..!! أى إنسان ؟

الإنسان الذى عرف الخلق ولم يعرف الخالق ، والذى يحسّ أهواءه فى بدنه وفى دنياه ، ولايدرى عن وحى الله شيئا له وزن ، ولايقدِّم للآخرة شيئا يكون له ذخرا !!

وما أشك فى أن المسلمين يحملون من هذا التناقض وزرا كبيرا ، فهم ماتذوّقوا الحق الذى اصطفاهم الله له ، ولا حملوه إلى الناس كى ينفعوهم به ..

ونشأ عن ذلك أن جماهير المسلمين فقيرة كسيرةُ الجانب ..

---

(١) سورة غافر: ٢٩.

والثراء الذى ناله بعضهم عاريَّةٌ من الاتصال بالأجانب والعمل لهم أو معهم !!

ونشأ عن ذلك أيضا أن أمما كثيفة العدد تذلها الديون التى أخذتها وتكاد تنقض ظهرها ، ومع الديون رِبًا مضاعَف ، ومعها جميعا لادين ولا دنيا إلا مايظفر به الأذناب من فضلات الأرباب ...

وتذكرت أحاديث كنا نتعلمها فى صغرنا وما انتفعنا بها فى كبرنا !

تذكرت مارواه أبو سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله يقول : أعوذ بالله من الكفر والدَّيْن[1]!! فقال رجل : يارسول الله ، أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم !!

وفى حديث آخر : « لاتخيفوا أنفسكم بعد أمنها[2] !! قالوا : وماذاك يارسول الله ؟ قال : الدَّيْن » .

وعن أبى موسى أن رسول الله قال : « إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه ، بعد الكبائر التى نهى الله عنها ، أن يموت رجل وعليه دين لايدع له قضاء»[3].

وفى رواية « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه »[4].

وهذه الأحاديث كلها فى الديون التى يأخذها الناس توسعا فى حقوق الآخرين ، وإطاعة لرغبات وشهوات مجنونة ، مع قلة اكتراث بالوفاء أو استعداد له .

ومعروف أن الفقر نوعان : فقر صعلكة وكسل ، وفقر سببه الجهاد والبذل ، أو إيثار الحلال القليل على الحرام الكثير ، أو الترفُّع عن قبول السُّحْت والرشوة وهدايا السلطة المتاحة للمرء ..

الأول معصية ، والآخر مَحْمَدة ، وحال الأفراد والجماعات فى أمتنا الكبرى

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٣٨).

(٢) رواه البيهقي.

(٣) رواه الامام أحمد في المسند (٤/٣٩٢).

(٤) رواه الترمذي في الجنائز بلفظ «نفس الميت».

يرجع إلى النوع الأول غالبا ، ففقر المسلمين واستدانتهم ، وقلة ذات اليد عندهم ترجع إلى عجز عن مكابدة الحياة ، وجهالة بمفاتيح الخير ، واستهلاك الأوقات فى البطالة والملذات !

إن سعة المعرفة ذريعة إلى سعة الثروة ، وإن الخبرة بالدنيا أقصر طريق لخدمة الدين !

والمرء قد يمرض فيأسى على الصحة ويبحث عنها ، ويعرف قيمة العافية ويحرص عليها ، وقد تلحق به أزمة فيمد يده مُقترضا أو سائلا ، شاعرا بذُلّ الحاجة ، ضائقا بأيام الفقر .

أما أن يتحول المرض والفقر إلى دين فذاك تفكير المجانين .

وما أكثر الذين جُنُّوا عندنا ثم زعموا ـ بعد فِقْدان العقل ـ أن الدِّين يكره المال ، ويحب المسكنة ، ويرتضى لأتباعه التخلُّف المدنىّ والعسكرىّ ، أو الهوان المادِّىّ والأدبى ، وأن يعيش المسلمون أذنابا ، وأن يعيش غيرهم أربابا ! ولعنة الله على العجز والكسل .

كنت أسير فى الشارع فوجدت العمال يحفرونه على مدى بعيد ، وبعمق كبير ، ووجدت انابيب هائلة تُمَدُّ بلباقة وقدرة ، لتكون شبكة الصرف الصحى فى هذا الحى الكبير !

وعرفت أن معونة انكليزية مشكورة قامت بالصناعة والتركيب ..!

ومدَدْتُ يدى إلى إحدى الصحف كى أغالب السآمة التى تتسلل إلى أعصابى ، فوجدت فى الصفحة الأولى خبرين : يقول أولهما : ١٥٠ مليون دولار منحة من إيطاليا إلى مصر..

ويقول الآخر : مساعدات غذائية أوربية لمصر قيمتها ١٠ ملايين دولار ، لمناسبة عودة ٤٠٠ ألف عامل فروا من العراق والكويت فى الأحداث الأخيرة ...

ومسلسل الأخذ لاينتهى ! وستبقى الأكفُّ مفتوحة لتَلَقِّى القروض والهبات حتى نستفيق من الغَيبوبة التى رانت علينا ...!

إننا لم ننحرف عن رسالتنا الإسلامية فقط ، بل نسينا انتماءنا إلى آدم الذى علّمه الله الأسماء كلها ، وأهبطه إلى الأرض كى يعمرها بذكائه ونشاطه ، أو بكدّ يمينه وعرق جبينه ! !

فما المعرفة التى نُحصِّلها ـ والحالة هذه ـ إذا كانت من الناحية الدينية مغشوشة ، ومن الناحية الإنسانية مضطربة ؟؟

ألا يحتاج مسارنا الفكرى إلى مراجعة ؟

obeikan.com